E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الاسطوغرافيا الاستشراقية الفرنسية حول تيمة الجزائر في العهد العثماني
ما بين الموضوعية العلمية والذاتية المؤدلجة مقاربة اثنو تاريخية

French orientalist historiography about the theme of Algeria in the Ottoman era
Between the objectivity of scientific and self-meditative A historical ethno approach

د.ة.نعيمة رحماني (*)
جامعة تلمسان
naima.rebat@hotmail.fr
أ.د.. شعيب مقنونيف
جامعة تلمسان
meg_chaib@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: **2019/01/10** تاريخ النشر: **2019/03/05**

الملخص:
ركّزت الاسطوغرافيا الاستشراقية الفرنسية حول تيمة الجزائر في العهد العثماني على مسائل دقيقة بغية تشويه صورة العثمانيين، بينما احجمت عن التطرق للمسائل الأخرى التي عرفت تحسّنا في تلك الفترة كالعلاقات الخارجية وحال الاقتصاد والمبادلات التجارة، والجانب الثقافي والعلمي وغيرها. ومن بين تلك المسائل؛ مسألة الغاء كينونة الدولة الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي عام 1830م، ومسألة القرصنة، ومسألة الأسرى، إضافة الى مسألة الفتن الداخلية والغنائم، الأمر الذي أفرز وبشكل لافت اسطوغرافيا فرنسية مشدِّدة على التاريخ السياسي ومؤدلجة لأحداث والوقائع.
الكلمات الدالة:
الاسطوغرافيا ،الجزائر ،العهد العثماني

Abstract:
French Eastern historiography has focused on the theme of Algeria in the Ottoman era on specific issues in order to distort the image of the Ottomans, while refraining from dealing with other problems that had occurred. during this period, such as external relations, the state of the economy, trade, cultural and scientific aspects. Among these issues are the question of the abolition of the Algerian state before the French occupation in 1830, the

(*) **المؤلف المرسل: رحالي نعيمة** naima.rebat@hotmail.fr

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

question of piracy and the question of prisoners, as well as the question of internal conflicts. This produced a French historiography based on political and ideological history.

Key Words :
Astrography , Algeria , Ottoman era

اتفقت جلّ الاسطوغرافيا الفرنسية المهتمة بتاريخ الجزائر في العهد العثماني على ان تلك الفترة قد عرفت تأخرا حضاريا واستبدادا على كل المستويات ضدّ الأهالي الجزائريين الخاضعين لتلك السلطة والضائعين في نظرهم. [1] حيث ذكر الباحث علي حفناوي أن المؤرخ الفرنسي ايميل فيليكس غوتيه Emile-Félix Gautier (1864-1940م)، والمؤرخ جورج هنري بوسكي Henri Bousquet Georges – (1900-1978م)، ومن تأثر بهم اعتبروا علاقة الجزائر بالدولة العثمانية علاقة المعتدي (العثماني المسلم) بالمعتدى عليه (الجزائري المسلم). [2]ذلك المعتدي الذي يملك سلطة طاغية استغلالية مارست كل أنواع القهر والحرمان ضدّ الأهالي المحليين. [3] وهنا يحضرنا قول المؤرخ الجزائري أحمد توفيق المدني المعاكس تماما لما ذكرته الاسطوغرافيا الفرنسية، إذ أكّد على ان العلائق بين السلطة العثمانية والأهالي الجزائريين كانت في أغلب الفترات على غاية ما يرام، ولكنّ هذا الوضع لم يمنع من وجود بعض السياسات الظالمة التي كان يسلكها بعض الولاة، وهي ظاهرة موجودة في كلّ المجتمعات وحتى في وقتنا الحالي، ولا تختصّ بفترة معيّنة او دولة بعينها. وفي مقارنة قام بها المؤرخ الجزائري أحمد توفيق المدني حول وضع الجزائر في تلك الفترة بأوضاع الدول الأخرى ذكر ما يلي: "**ولكن اذا ما ألقينا نظرة عامة على حال العالم يومئذ راينا ان اكثر الأمم والشعوب في مشارق الأرض ومغاربها لم تكن اسعد حالا من بلاد الجزائر، ولم يكن العدل فيها اوفر مما هو هنا، ولم يكن حكامها ارحم ولا اعدل من حكام الاتراك.**" [4] وفي السياق نفسه اكّد المؤرخ عبد الحميد بن ابي زيان بن اشنهو ان الدول المجاورة شهدت الفتن الداخلية نفسها وعاشت التفرقة وعانت من الفوضى العارمة، حيث كانت السلطة في إيطاليا موزعة على البابا وفينيزيا وجنوة وسردينيا وصقلية وفلورانزا ولونباردا بشكل أدى الى التطاحن فيما بينهم عليها، والوضع نفسه شهدته المانيا وفرنسا واسبانيا. [5]
ويشاطرهم الرأي المؤرخ أحمد توفيق المدني: "**يقولون ان البلاد الجزائرية لم تكن طيلة ذلك العهد هادئة مسالمة، وان لهيب الثورات كان يندلع أحيانا في مختلف الجهات وان اعمال القمع كانت تقع قاسية صارمة، أي نعم ان ذلك كان يقع، انما هل كانت حالة الشعوب الأوروبية طيلة ذلك العهد اكثر هدوء واستقرارا، وهل لم تكن الثورات والقلائل والفتن التي وقعت في تلك القرون ببلاد فرنسا وقطاعاتها وفي شراسة اخمادها ما وقع في القطر الجزائري؟**" [6]

هي اذن مغالطات تاريخية مقصودة تجرّنا الى طرح التساؤلات التالية؟ كيف كانت حياة الفرنسيين قبل الثورة الفرنسية الكبرى؟ ولماذا قامت الثورة الفرنسية أصلا؟ هل بسبب حالة

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الاستقراء والهناء التي عرفتها فرنسا؟ وهل تمّ تناسي الممارسات اللاإنسانية من قبل الاسبان تجاه مسلمي الاندلس؟ والاحداث الدامية في محاكم التفتيش؟ هل حقا كانت حال الغرب المسيحي تختلف عن حال الشرق المسلم، كما بينته نظرياتهم ذات البعد الضيق؟ هي أسئلة لا تفتقر إلى جواب، ولكنّها للتذكير فقط حتى يتضح التشابه بين حال بعض المجتمعات الأوروبية مع حال الجزائر في تلك الفترة، وحينها ندرك المغالطات الاسطوغرافية الرامية لخدمة النسق الاستعماري والنسق الديني.

1) الاسطوغرافيا الاستشراقية الفرنسية المشدّدة على التاريخ السياسي للجزائر في العهد العثماني

من أكثر المسائل التي ركزت عليها الاسطوغرافيا الفرنسية في العهد العثماني هي؛ مسألة تشويه صورة العثمانيين، ومسألة الغاء كينونة الدولة الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي عام 1830م، ومسألة القرصنة ومسألة الأسرى، إضافة الى مسألة الفتن الداخلية والغنائم، بينما نلاحظ انها احجمت عن التطرق للمسائل الأخرى التي عرفت تحسّنا في تلك الفترة كالعلاقات الخارجية وحال الاقتصاد والمبادلات التجارة، والجانب الثقافي والعلمي وغيرها. فبرزت على الساحة وبشكل لافت الاسطوغرافيا الفرنسية المشدِّدة على التاريخ السياسي بالدرجة الأولى؛ أي انها اعتمدت على تغطية الأحداث قصيرة الزمن، بينما ابتعدت عن التاريخ الاجتماعي المعالج للعلاقات والبنيات الاجتماعية طويلة الحدث. ويؤكد ما ذكرناه المؤرخ مولاي بلحميسي قائلا: "**ان معظم مؤرخي القرنين التاسع عشر والقرن العشرين تمثلت كتاباتهم في التركيز على العنف والحروب الداخلية والحوادث الدامية والثورات المحلية وعلى الانقلابات والاغتيالات والمؤامرات والفتن والزوابع السياسية وعدم الاستقرار وفقدان الامن، وكأنّ الجزائر قائمة على فوهة بركان...فهذا داي يقتل وذاك يخنق وثالث يسلخ، وهذا باي يصادر وآخر يعذّب بسبب ما جمع من المال، وهذه طائفة تنقضّ على طائفة. فلا مجال في مؤلفاتهم لأيام مشرقة ولا لعهد كان زاهرا، ولا ترجمة لعظيم سياسي وقائد موفّق، وكأنّ البلاد لم ترزق شخصيات سمت بالمواهب والحكمة والحزم وحسن التدبير.**" [7] ويضيف قائلا: "**فالعاصمة في مؤلفاتهم حجر اللصوص وعش الصعاليك وجحيم النصارى وجمهورية قطاع الطرق....وحكام البلاد غيلان افريقيا، وهم اهل استبداد، معدومو الاخلاق، همهم الوحيد هو طلب اللذة ونهب الأموال، واما ريّاس البحر وعظماء البحرية...فهم المتعطشون للدماء وهم رعاع القوم وحثالة الاتراك وهم القراصين الناهبون.**" [8] وعن صورة العثمانيين في الاسطوغرافيا الفرنسية يذكر المؤرخ يحي بوعزيز أن المؤرخين الفرنسيين شوّهوا العلاقات الطيبة التي كانت تربط العثمانيين بالأهالي، وصوروهم (العثمانيين) في ابشع صورة واخسّها، فنعتوا حكمهم بالإقطاعي والطاغي والمتخلف، وزعموا انهم غزاة أجانب استعماريون لا هدف لهم سوى الغزو والقرصنة، وادّعى بعضهم ان دولتهم دولة الانتحار العسكري، واصرّوا على هذه المزاعم قبل الاحتلال الفرنسي وبعده. [9] وإن وُجد وتطرّق أحد المؤرخين الفرنسيين إلى بعض الشخصيات الجزائرية البارزة فإنّه يحطّ من قيمتها

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

ويقلّل من أهميتها، وخير مثال على ذلك ما قام به المؤرخ المختصّ الفرنسي جورج ايفير George Yver (1870-1961م) صاحب جزء من مادة الجزائر في دائرة المعارف الإسلامية (الاستشراقية)، عندما تحدّث عن الأمير عبد القادر قائلا: "**لم يكن بطلا ذو جنسية عربية في الجزائر لأنها لم توجد، ولم يكن سياسيا مجددا يهدف الى ادخال الحضارة الأوروبية على مواطنيه الذين كانوا نصف برابرة، ولكنه كان مرابطا طموحا أراد ان يحل نفسه محل الاتراك، واستغل لتحقيق ذلك غفلة الفرنسيين ونسبه الشريف وشجاعته الشخصية...ان الأمير قلد الاتراك في إدارتهم فملأ خزانته بالمال مثلهم، واعتمد على حكم القوة، وقد اخذت فرنسا هذا النظام وطبقته على الأهالي ولكنها جعلته اكثر إنسانية.**" [(10)] يدرج المؤرخ جورج ايفر استراتيجية خطابية أساسها التقديم الإيجابي للذات الغربية التي يعتبرها "**أكثر إنسانية**" .

وفي الوقت نفسه يركّز على التقديم السلبي للآخر على انه " **لم يكن بطلا**" و"لم توجد (جنسية عربية في الجزائر)"، و"**استغلّ**" (الأمير عبد القادر)، كما يقدّم المؤرخ مشهدا مقارنا فيه بين الأمير عبد القادر والأتراك (وليس العثمانيين، وهو تعبير شاع استعماله في تلك القترة تأكيدا وترسيخا للعنصرية والقوميّة) فيعتبره مقلّدا لا مبدعا، ثم يتنصّل بلطف ويهّون من ويل الاستعمار مُبديا إياه "أكثر إنسانية"، بطريقة تخفّف من وطأته وتغّير من نظرة القارئ اليه (المستعمَر)، وهنا تظهر جليا أيديولوجية المؤرّخ السياسية الموالية للمستعمر والتي حرصت على ابعاد البعد الوطني عن شخصية الأمير عبد القادر وعملت على ربطها بالعامل الاقتصادي " **فملأ خزانته بالمال**" لكي لا تكون هناك صلة بينه وبين اهداف المقاومة. وفي السياق نفسه أكّد الباحث عبد الرحمن دويب أن المؤرخ الفرنسي ايميل فيليكس غوتيهEmile-Félix Gautier (1864 - 1940م)، تحدّث في مؤلفه "ماضي افريقيا الشمالي في القرون المظلمة" بهوية استعمارية متطرفة قائلا: "**ان السكان الأهالي لهذه البلاد لم يتوصلوا يوما من الأيام الى طرد مستعمريهم.**" ثم يناقض نفسه في موضع آخر قائلا: "**ومع هذا نجد ان هؤلاء الراضين باستعمار بلادهم من دون ان يحرّكوا ساكنا ليسوا من الاجناس الهادئة فانهم رجال حروب ولهم قادة وابطال من عهد حنبعل الى عهد عبد القادر.**" [(11)] المتأمل لهذا الخطاب يجد نفسه بين رأيين متناقضين لشخصية واحدة، فتارة يتّهم المؤرخ الفرنسي الأهالي بالجبن وعدم الدفاع عن بلادهم بل ويجزم بذلك "**لم يتوصّلوا يوما...**"، وتارة يشيد بجنسهم الثائر" **رجال حرب ولهم قادة وابطال...**"، وما هذا التوتر في منطق الكتابة وسطحية التفسير والاعتماد على الأفكار المؤدلجة المتحيّزة للنسق الاستعماري الفرنسي سوى رغبة جانحة وقصدية لإبعاد الذات الجزائرية عن الوعي بتاريخها المجيد.

وهذه الأمثلة عن الاسطوغرافيا الفرنسية لدليل على ان معظم المؤرخين المستشرقين قد استعانوا بالمناهج الاستشراقية لخدمة اغراضهم حيث سخّروا هنا منهج البناء والهدم، فتارة يشيدون وتارة يتّهمون كنوع من التخدير المعرفي والشلل الثقافي. كما اخضعوا المنهج التاريخي

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

لأغراضهم الخادمة للنسق الاستعمارية والديني وزعموا أن أصول الدولة الجزائرية ممتدة الى الدولة الرومانية. واستعانوا بمنهج الأثر والتأثر الذي استعمل من قبل الاستشراقيين الأوائل لردّ عناصر الدين الإسلامي الى اليهودية والمسيحية، لنجده يتكرر كنوع من الرواسب الثقافية في خلال ردّأصول الجزائر الى الرومان وبالتالي الى المسيحية. وقد سخروا مناهج أخرى تخدم توجهاتهم غير العلمية كالمنهج التشكيكي الافتراضي ونسج الأكاذيب والخرافات، ومنهج نفي الحقائق في خلال نفي كينونة الأمة والشعب الجزائري، وغيرها من المناهج التي استعانوا بها لتفسير نظرياتهم المؤدلجة في ضوء خبراتهم ومشاعرهم الخاصة.

2) الاسطوغرافيا الاستشراقية الفرنسية المشدّدة على مسألة إنكار وجود "شعب" او "امة" جزائرية

من بين المسائل التي ركّزت عليها معظم مزاعم الاسطوغرافيا الفرنسية مسألة إنكار وجود "شعب" او "امة" جزائرية قبل الاحتلال الفرنسي، أي في الفترة العثمانية، حيث قدّم المؤرخون الفرنسيون حُججا لمزاعمهم مفادها انه عندما وطئت فرنسا ارض الجزائر عام 1830م، وجدت فيها قبائل متناثرة هنا وهناك، وارضا مهجورة سائبة و غير معمورة، كما ان فكرة "الضمير المشترك" لدى الأهالي كانت مفقودة، وهذا ما جعل مسألة احتلالها أمرا ضروريا ومن حقّ كل أمة اجنبية اذا كانت قوية وتملك العتاد والاستعداد. (12)

أن منطق الاسطوغرافيين الاستشراقيين في هذا السياق قوي جدا وواضح جدا إذ يسعى الى التقليل من شأن الدولة الجزائرية وفي المقابل يضفي الشرعية على الاحتلال، باعتبار انهم أصحاب حضارة والجزائريون دون ذلك. وهم يعلنون صراحة انه من حقّ كل امة اجنبية ان تحتلّها كما سنرى لاحقا. ففي نظرهم قد حال الوجود العثماني دون اكتساب الجزائر مقومات الدولة، فهي بالنسبة اليهم منطقة فراغ حضاري تفتقر الى مقومات الدولة. (13) وهي بحاجة ماسّة الى من يستعمرها وينتقل بها الى الركب الحضاري. يجرّنا هذا الفكر الاستشراقي إلى خطاب آخر يعترف فيه الاسطوغرافي الفرنسي بكلّ صراحة، وضمن وثيقة رسمية مخصّصة لجيش حملة العدوان الفرنسي على الجزائر عام 1830م، صادرة بأمر من وزير الحرب الفرنسي ومستقاة من تقرير المهندس العسكري والجاسوس الفرنسي فانسونا يفس بوتان Vincent –Yves Boutin1772-1815م، الذي أُرسل من قبل الامبراطور نابليون بونابرت الى الجزائر عام 1808م بهدف اعداد تقرير يتضمن خطة لاحتلال الجزائر. حيث جاء في الوثيقة: "**وما الحاجة الى تخصيص الشكاوى والمظالم التي كانت لنا في المدة الأخيرة ضد الجزائر، بينما مجرد وجود الجزائر ذاته مظلمة وشكوى كافية بالنسبة لجميع الأمم المتحضرة، ومبرر عادل دائم لتخريب هذا الوكر للقرصان وقطاع البحر؟ فمنذ مدة والفلسفة والسياسة الإنسانية والدين؛ كل هذا يتطلب منّا إبادة دولة تمثل جميع مفاهيمها خرقا دائما لكل مبدإ أخلاقي، وتشكل مساسا بكل حضارة**". وهنا النص الأصلي للوثيقة (14)

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

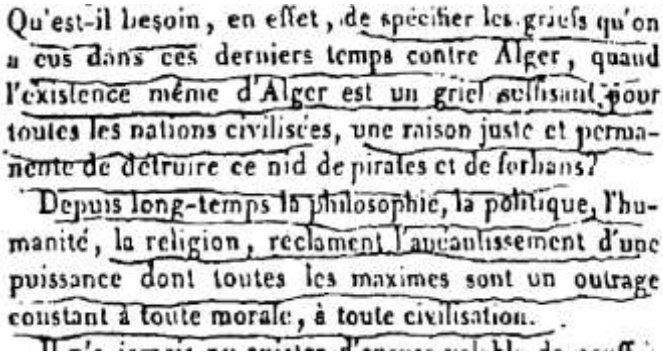
Qu'est-il besoin, en effet, de spécifier les griefs qu'on a eus dans ces derniers temps contre Alger, quand l'existence même d'Alger est un grief suffisant pour toutes les nations civilisées, une raison juste et permanente de détruire ce nid de pirates et de forbans?

Depuis long-temps la philosophie, la politique, l'humanité, la religion, réclament l'anéantissement d'une puissance dont toutes les maximes sont un outrage constant à toute morale, à toute civilisation.

تبيّن لنا الوثيقة بجلاء النيّة المسبقة منذ قرون لاحتلال الجزائر، وما حادثة المروحة إلا مطيّة فقط لبلوغ المآرب. حيث سعى الخطاب في هذه الوثيقة الى رفض الطرق القديمة للاحتجاج على ممارسات القرصنة، والبحث عن البديل المضادّ الذي تشكله عبارة "**وما الحاجة لتخصيص الشكاوى...**"، في حجة تعرض الدّرس الذي تلقّته تلك الحضارات من قبل الجزائر، درسا يجعلها مدفوعة لاحتلالها وابادتها لما تشكّله من خطر على الأمم المتحضرة في نظرها " **مجرد وجود الجزائر ذاته مظلمة وشكوى كافية بالنسبة لجميع الأمم المتحضرة...**". ليصبح الجاني (المستعمِر) هو الضحيّة الذي يعاني من القراصنة قطاع البحر. تصنيف يجعل من الجزائر شردمة قراصنة ويجعل من فرنسا دولة متحضّرة، فتشكل اذن الجزائر بقراصنها عبئا لا تستطيع تلك الأمم المتحضرة تحمّله أكثر، الأمر الذي يُخوّل لهم إضفاء الشرعية على استعمار وإبادة شعبها " **ومبرر عادل دائم لتخريب هذا الوكر للقرصان وقطاع البحر...**". يحيلنا هذا الخطاب أيضا الى نظرية المؤامرة الجامعة للأمم المتحضرة المتآمرة على دولة واحدة، وهي مؤامرة من صنع عقل عاجز يبحث عن حلّ سريع يحاكي احكاما سابقة تلقي بأثقال جهلها المعرفي والسياسي على "كبش محرقة " [15] وهي الدولة الجزائرية وكر القراصنة في نظرهم. وبسبب القناعات اللاعقلانية التي أدمجت كل الأفكار في فكرة استعمارية غير قابلة للدحض تَشَكَّلَ ايمان عندهم بدل الدليل القاطع، وبسبب الشحنة السلبية الحاملة للخواء المعرفي والجهل بتاريخ الدولة الجزائرية تم استعمارها وابادة شعبها كما جاء في الوثيقة تماما. عرفت الاسطوغرافيا الفرنسية اذن شحنة قوية من المزاعم والادعاءات والمغالطات عن أهالي الجزائر في الفترة العثمانية، كان الهدف منها شرعنة استعمارهم، فاعتبروها جمعا من القراصنة وخليطا من اجناس مختلفة وقبائل متنافرة، لا تجمع بينهم رابطة الشعور بالانتماء الى ارض واحدة وبلد واحد، وينعدم بينهم الانسجام. كما اكّدت اسطوغرافيتهم أن الوطنية الجزائرية أوجدتها فرنسا بفضل الإصلاحات والتنظيمات الإدارية والاقتصادية والمالية التي ساهمت في ظهور الدولة الجزائرية.[16] رغم اننا استشهدنا سابقا بقول المؤرخ المختصّ الفرنسي جورج ايفير George Yver (1870-

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

1961م) حين اعترف أن فرنسا اخذت "**هذا النظام وطبقته على الأهالي ولكنها جعلته اكثر إنسانية**". [17] وهنا يقصد النظام الذي كان سائدا في الفترة العثمانية، فكيف للنظام ان يكون موجودا في بلاد ما ولا يصاحبه شعور بالانتماء الى تلك البلاد، ولا تصاحبه ايضا وطنية ولا دولة؟

وفي ادعاءات اسطوغرافية اخرى اعتُبر المجتمع الجزائري من المجتمعات العربية المتعصبة والمنقسمة والمتنافرة، وذلك تأويلا وتحريفا لنظرية العالم العربي عبد الرحمن ابن خلدون (1332-1406م) حول العصبية، حيث استند المؤرخون الأوروبيون على مبادئها ليفسروا فكرة الانقسامية أو التجزيئية والانشطارية، والتي جعلوها ملازمة للنمط الاجتماعي والسياسي العربي، فاستعملت النظرية كأداة لتبرير استعمارهم لتلك البلدان المنقسمة. ومن أهمّ روادها في الجزائر المؤرخ والمستشرق الفرنسي روجي لوتورنو Roger Le tourneau (1907-1971م) صاحب جزء من مادة الجزائر في دائرة المعارف الإسلامية (الاستشراقية)، والذي ركز على منطقة القبائل والعادات القبائلية، وعلى النزعات الفردية والعائلية. [18] فوجد لفكرته "الانقسامية" المركزة على منطقة القبائل البربرية تأصيلا نظريا في الفكر الخلدوني، واعلن مغالطة مفادها ان سكان الجزائر يتشكلون من عرب قدموا من المشرق حملوا الى المنطقة الخراب والهمجية، وبربر ذووا أصول اوروربية هم اكثر استعدادا لفهم واستيعاب أفكار مونتيسكيو، وأكّد على أن العرب سلبوهم ثقافتهم وفرضوا عليهم دينا وثقافة جديدة. وعلى أثر تلك التفسيرات اعتبر العرب عنصرا متخلفا متوحّشا وتقليديا يجب احتلاله وتولي نشر الحضارة الغربية في أوساطه. [19] وما هي طبعا إلا استراتيجيات من قبيل "فرّق تسد" ضمن نظرية انقسامية مورست كسلاح معرفي استعماري قوي معتمد على اختزال ما يناسبهم من نظريات العالم ابن خلدون حول العصبية والعرب.

وهكذا نجد ان الاسطوغرافيا الفرنسية والغربية عامة قد وظفت نظريات ابن خلدون كخلفية ثقافية استندت عليها جلّ اطروحاتها، ليتمّ بذلك عرض العالم ابن خلدون على انه اب الانقسامية [20] بغية إقامة البيّنة لتطبيق نظرياته المعدّلة على المجال العربي الإسلامي بما أنها وليدة تلك البيئة. وبالتالي اعتبر المجتمع الجزائري بالمفهوم السوسيوأنثروبولوجي مجتمعا مقسما الى قبائل وكل قبيلة تنقسم الى فروع، وهذه تنقسم بدورها الى أجزاء الى ان تصل الى مستوى الوحدات العائلية، ويبقى النسق القرابي (النسب او القرابة) هو المهيمن داخل مجتمع يتميّز بالصراع والعصبية التي تولد العداوة والتضامن، وهذا ما يعبّر عنه المثل الشائع والذي يستغله العلماء الانقساميون: "انا ضد اخوتي، انا واخوتي ضد ابن عمي، انا واخوتي وأبناء عمي ضد العالم"، وهذا المثل طبعا تلخيص للنظرية الانقسامية [21]في شكلها الاستشراقي المفروض. فالبنية الانقسامية للمجتمع تمنع تمركز السلطة في اية هيئة، مما يؤدي الى غياب الدولة، وهذا ما يريد ان يصل اليه المنطق الاسطوغرافي الفرنسي من اجل نفي كينونة الدولة الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي عام 1830م. لقد تعاطت الاسطوغرافيا الفرنسية مع نظريات ونصوص العالم ابن

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

خلدون بشكل انتقائي واختزالي حيث فصلتها وبترتها عن سياقها الذي تشكّلت فيه، وركّزت على الجزئيات والمفاهيم التي تخدم منطقها المؤدلج دون غيرها. هذا الفعل انموذج عن منهجيات واستراتيجيات المستشرقين المبنية على العملية الانتقائية والاقتباسية والتأويلية والتحويلية للمعاني الحقيقية بما يسهم في تحقيق اهداف المنطق الاستشراقي. وهنا يؤكد الباحث محمد جحاح ان المستشرق الإنجليزي إرنست غيلنر Ernest Gelner (1929-1995م) اعترف بان كل ما حدث هو تطوير لنظرية ابن خلدون وارتقاء بها من "نظرية العصبية" الى نظرية "الانقسامية والتجزيئية"، ففي نظره قد مارس العالم ابن خلدون الانقسامية في تحليلاته دون ان يستعين بالمفاهيم الانقسامية التي جاءت بها النظريات الغربية بعده. [22]تلك النظريات التي سعت جاهدة لتؤكد أنه قبل الاحتلال الفرنسي وفي الفترة العثمانية لم يكن للدولة الجزائرية كينونة بقدر ما كانت هناك قبائل وعشائر مشتتة تحكمها العصبية والانقسامية إلى حين دخول المستعمر الفرنسي الذي أباد تلك العصبية والانقسامية وأسّس الدولة الجزائرية. وهنا يذكر الباحث نعيم زايدي أن الدولة العثمانية في الجزائر قد سعت إلى إنشاء ايالة الجزائر الموحدة، وقسمتها إداريا الى دار السلطان وثلاث بيالك؛ وكانت العلاقات الاقتصادية (الزراعة الريفية وتربية المواشي) تكاملية بين الريف والمدينة ولم تشهد صراعا ولا عداء، فثراء المدينة يساهم في مد الريف بما هو بحاجة اليه في شكل سلع وخدمات، كما ان هذا الأخير يساهم في تأسيسها من خلال ما يدفعه في شكل ضرائب. [23] وهذا القول يدحض النظرية الانقسامية والعصبية في المجتمع الجزائري في العهد العثماني والتي تبنتها معظم الاسطوغرافيا الغربية.

تحيلنا هذه الاسطوغرافيا التي ركّزت على عدم وجود كينونة للدولة الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي الى مساءلة مهمة مفادها؛ لماذا وُجد فراغ تأليفي اسطوغرافي جزائري حول ثيمة الجزائر في العصر القديم وما قبله ليدحض ما روّج له معظم المؤرخين المستشرقين؟ يقدّم لنا المؤرخ يحي بوعزيز تفسيرا منطقيا مفاده ان التأريخ لماضي الجزائر كان من المسائل الشاقة والعسيرة على اختلاف مراحله، ويرجع سبب ذلك إلى قلة المصادر والوثائق وانشغال اجدادنا بالحروب واهتمامهم بصدّ الحملات الاستعمارية المتوالية على بلادنا منذ العصور القديمة. [24] وفي خضمّ هذا الفراغ التاريخي وُجدت الساحة سانحة للاسطوغرافيين الأجانب للإدلاء بدلوهم، وتزييف الحقائق التاريخية بغية خدمة النسق الاستعماري والديني المسيحي، وعلى أثر ذلك حاول الكثير من المؤرخين الجزائريين الردّ على هذا التأريخ الباطل؛ من بينهم المؤرخ مولود قاسم نايت بلقاسم الذي أكّد أن الدولة الجزائرية كانت موجودة في العهد الإسلامي قائلا: **"من رستمية وزيرية ثم حمادية وزيانية مع انصهارها في بوتقة الخلافة الإسلامية، الاموية منها والعباسية والعبيدية الفاطمية"** [25] وعن علاقاتها الخارجية يضيف: **"فقد كان لها وجودها البارز وشخصيتها المتميزة، بالعلاقات التي ربطتها مع افريقيا العميقة وشرق افريقيا وخليج عمان، وبعلاقاتها التجارية مع دول ساحل البحر الأبيض المتوسط، ومراسلاتها مع بعض الدول**

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الأوروبية، مثل الفاتيكان عام 1067م، وارسال فرنسا والجمهوريات الإيطالية بقناصل لها الى بجاية" [26] وعن حروبها ذكر:**" مساهمتها في حماية الشطوط والسواحل المغاربية من الغارات الصليبية بالنسبة للدولة الحمادية، وبتحالفاتها حسب الظروف مع الدول المغاربية لخرق الحصار وردّ الاطماع حولها بالنسبة للدولة الزيانية"**. [27] وفي السياق نفسه أكّد المؤرخ عبد الحميد بن ابي زيان بن اشنهو أن "**الجزائر كانت دولة من اكبر الدول في عهد يغمراسن الاولين وقبلهم، وكان لها في عصرهم شعب وامة وحدود ترابية ودواليب إدارية وتقاليد لا يختلف فيها اثنان، تلك الشروط التي تتوفر لقيام امة ودولة، إنّما هزمت الدولة ونهض مغامرون وشتتوا شملها.**" [28] لقد تعمّد جلّ الاسطوغرافيين الفرنسيين إضفاء الجهل المعرفي على تاريخ الجزائر رغم انهم بحثوا في الآثار القديمة للجزائر والمكتشفات التاريخية، حتى ان وزارة الحربية أنشأت عام 1837م لجنة باسم اكتشاف الجزائر العلمي، ونشرت دراسات هامة عن الاثار والتاريخ وعلم السلالات [29] حيث عثر علماء الاثار الاركيولوجية عام 1933م على نقوش ورسوم مختلفة في "الطاسيلي" بالجنوب الشرقي من صحراء الجزائر وبالشمال الشرقي من بلاد "الهقار" تعبّر عن صور للنوعين الانسان والحيوان وكانت متناسقة ومتقنة الوضع والتخطيط، واكّد علماء الأركيولوجيا أن تاريخها يرجع الى ما قبل سبعة آلاف او ثمانية آلاف سنة [30] وهذا خير دليل على وجود الانسان الجزائري منذ القدم، وليس كما تداولته بعض الموسوعات متسائلة عن أصل هذا الشعب المستعمر، كما سنراه لاحقا.

صورة من رسوم كهف الطاسيلي بالجزائر [31]

يذكر المؤرخ عبد الرحمان الجيلالي في سيرورة تاريخ الدولة الجزائرية في كتابه "تاريخ الجزائر العام" انه تعاقب على الجزائر بعد العصر الحجري أمم عظيمة؛ منها البربر، الدولة الفينيقية، (القرطاجية) 880-146 ق.م، مع العلم انها اول دولة في العالم "**سنّت نظم الحياة**

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

النيابية والحكم الجمهوري، فكانت تملك حكومة مركزية ومستودعات اقتصادية ومؤسسات منتشرة عبر الوطن، ونظاما جمهوريا تحت رئاسة شيخين ينتخبهما الشعب مباشرة من اسرتين مختلفتين لمدة سنة كاملة احدهما للإدارة العسكرية والأخر للإدارة المدنية". [32] ثم ظهرت الدولة الرومانية 146-431م، والدولة الفاندالية431-534م، فالدولة البيزنطية 534-647م، وهذا ما نسميه بالجزائر العتيقة، وتاريخ هذا العصر يشمل تاريخ الشمال الافريقي كله. (33) ثم العهد الإسلامي بسلالاته الحاكمة المحلية وبدولاته الرستمية 776-909م، الادريسية 788-923م الأغلبية 800-909م، الفاطمية 909-972م، والزيرية الصنهاجية972-1014م، والحمادية 1014-1153م، ثم المرابطية 1079-1145م، والحفصية 1229-1536م، والمرينية 1269-1393م، وايضا العبدالوادية الزيانية 1235-1554م. [34] وفي لا اتفاقية مع ما ذكره المؤرخ عبد الرحمان الجيلالي، نجد ان الباحث الزواوي بغورة ذكر أن المؤرخ ناصر الدين سعيدوني قد اعتمد تصورا آخر مفاده ان الجزائر في الفترة القديمة ليست أكثر من مجال جغرافي غير محدود المعالم، وأنها واقعا بشريا يفتقر الى الهوية، تميزت بالتواجد الفينيقي على السواحل ثم الاستعمار الروماني والوندالي والبيزنطي، وغيرها. وقد عرفت نزعات تحررية لدى القبائل البربرية من خلال الثورات فظهرت امارات محلية لم تكن في الواقع تنتمي باي وجه من الوجوه، سواء كان ثقافيا او اجتماعيا او حتى سياسا واقتصاديا الى المفاهيم التي سوف تستند اليها لاحقا الهوية السياسية للجزائر فيما بعد." [35] وبين ما تقدّم به المؤرخ عبد الرحمان الجيلالي وما جاء به المؤرخ ناصر الدين سعيدوني نجد أنفسنا امام تساؤل جوهري الا يؤدي وجود إقليم محدد المعالم وواقع جغرافي وامارات ومملكات وممارسات سياسية واقتصادية واجتماعية الى وجود كيان وهوية وطنية؟ وهل الفتح الإسلامي لشمال افريقيا لم يبسط قوام الدولة الإسلامية بمفاهيمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفي كل الميادين؟ الا تعتبر تلك الثورات دفاعا عن ذلك الكيان ودفاعا عن تلك الهوية؟

اما بخصوص ميلاد الدولة الجزائرية واطلاق "اسم الجزائر على اقليمها" [36] في القرن 16م وبالضبط في عهد الدولة العثمانية، فقد اتفق حول هذه النقطة المؤرخ عبد الرحمان الجيلالي مع نخبة من المؤرخين أمثال المؤرخ احمد توفيق المدني والمؤرخ صلاح العقاد، والمؤرخ مولود قاسم نايت قاسم وغيرهم. حيث يؤكّد ذلك المؤرخ أحمد توفيق المدني في كتابه "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا" قائلا: "**دولة ذات معالم معينة وحدود مرسومة فوق تراب تشكلت منه ارض الوطن وتكونت فوقه وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية، بعد الوحدة الدينية التي كانت القاسم المشترك الأعظم، وقامت على راسه دولة لا تنتسب لعائلة ولا لقبيلة انما تنتسب لوطن معين، ثم اخترقت هذه الدولة في ميادين الكفاح والجهاد ثلاثة قرون ونيفا مرفوعة الراس خفاقة الاعلام سائرة ضمن دائرة الخلافة العثمانية نحو استكمال السيادة المطلقة، فهذه الدولة التي أقامها الشعب بإعانة الاتراك العثمانيين قد ولدت بين فرث الحوادث ودم المعارك.**" [37] ويساند

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

رأيه المؤرخ صلاح العقاد في كتابه "المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر" قائلا: "**والحق ان الجزائر كوحدة سياسية قائمة بذاتها انما تم تشكيلها خلال العهد العثماني.** [38] **ويذهب المؤرخ مولود قاسم نايت قاسم الى الراي نفسه في كتابه" شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية، قبل سنة 1830**" ذاكرا العلاقات والمسؤوليات الدولية التي مارستها الدولة الجزائرية في العهد العثماني؛ " **ان طابع الشخصية الدولية الفذة والوجود الدولي البارز والدور العالمي المشرق الواضح السمات، وممارسة المسؤوليات الدولية بمعنى الكلمة، بالإحساس العميق بهذا الدور، مثل الدول الكبرى اليوم تماما، مع الفارق الكبير في طريقة أدائه والنظرة الى الهدف منه، كل ذلك كان للجزائر بدون منازع في العهد العثماني في القرن 16.**" [39] وبالاعتماد على الاستشهادات السابقة والجمع بينها يمكننا القول ان تاريخ الجزائر الحافل دليل على أن أرض الجزائر قد عرفت دولا وجدت منذ القدم واختلفت اسماؤها من عهد الى آخر مثلها مثل أي دولة تأسست قديما، بينما برزت ملامح الدولة الجزائرية وتشابهت مع الدول الحالية في العهد العثماني.

3) الاسطوغرافيا الاستشراقية الفرنسية المشدّدة على مسألة القرصنة ومسألة الأسرى

واذا ما توجهنا صوب مسألة تشويه الاسطوغرافيا الفرنسية لتاريخ الجزائر في العهد العثماني تشويها لا نظير له، سنجد انها ادّعت ان الجزائر كانت ايالة مستعمَرة خاضعة لسلطة الأتراك؛ تلك السلطة الطاغية والاستغلالية التي مارست القهر والحرمان على السكان المحليين. [40] وان فرنسا جاءت لتخلّصها من نير ذلك المستعمِر المتخلف، ثمّ ساقتها تحت حكمها الذي أنار البلاد والعباد. وهنا يدحض المؤرخ عبد الحميد بن ابي زيان بن اشنهو هذا الحكم ضد الدولة العثمانية قائلا: "**لم يكن في الحقيقة احتلالا بالقوة والعنف من طرف دولة اجنبية قائمة مثلما كان يجري في غالب الأحيان من جراء عدوان اجنبي يهجم بعدده وعدته على البلاد، فيغزوها ويقاتل أهلها ويفتك بهم وينهب أموالهم ويخرجهم من ديارهم، ويترامى على الأراضي والدور والقرى، ويفرض عليهم حكمه الجائر، ويحاول ان يقضي على تقاليدهم وعوائدهم ودينهم، كما يفرض عليهم أفكاره وعقائده وحتى تاريخه.**" [41] وهنا يشير ضمنيا الى ما فعله المستعمر الفرنسي عند احتلاله للجزائر بالقوة والعنف وارتكابه لابشع المجازر.

وبخصوص مسالة القرصنة فقد حظيت هي أيضا باهتمام بالغ من قبل الاسطوغرافيا الفرنسية، حيث اعتبرت الجزائر عشا لقطاع الطرق، وملجأ للقراصنة الذين يمارسون السلب والاعتداء، كما أصرّت على اعتبار البحارة المسلمين أمثال؛ القائد عروج بن ابي يوسف يعقوب التركي (1474-1518م) المشهور بلقب بابا عروج، أوعروج ريس، واخيه خضر بن يعقوب (1470-1546م) المعروف بـ خضر ريّس، أوـخير الدين بربروس، إضافة الى القائد الثالث درغوث ريّس بايلرباي البحر الأبيض المتوسط (1485-1565م)، والملقب بـ طرغود أوتورجوت أوطرغول ، الذين جاهدوا لوقف الهجمات الصليبية والسفن المسيحية التي دأبت على التعرض للسفن الإسلامية على انهم قراصنة همّهم الوحيد السلب والنهب، والعمل على خنق التجارة

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الدولية، والسعي الى عرقلة قيام علاقات سليمة بين شعوب العالم.[42] لكنّ المتعمّق في تاريخهم البطولي سيعرف انهم كانوا رمز البطولة والجهاد في سبيل نصرة الدين الاسلامي ضد سفن الاستعمار التنصيري. وهنا يذكر المؤرخ احمد توفيق ان أحد المؤرخين الأوروبيين القلائل تحدّث بنزاهة علمية عن عروج، وهو المؤرخ الفرنسي هنري دالماس دي قرامون Henri Delmas De Grammont (1830-1892م) في كتابه "تاريخ الجزائر تحت حكم الاتراك" قائلا:"**ان الكثير من المؤرخين لا يرون في عروج الا زعيم عصابة، ليس الا، وانني لا اعرف حكما جائرا مخالفا للحقيقة كمثل هذا الحكم. فان البربروس الأول (عروج) ما كان الا جنديا من جنود الإسلام المغاوير جاهد فوق متن البحار جهادا لا هوادة فيه، ضد أعداء ملكه وضد أعداء دينه، على انه كان ملتزما خلال جهاده هذا بكل القواعد والاسس التي كان العمل جاريا بها خلال تلك الحقبة من التاريخ، فلم يكن ابدا اكثر قسوة ولا اقل قسوة من الأعداء الذين كان يمعن في محاربتهم.**"[43] وقد شهد شاهد منهم.

أما عن مسألة الاسرى في عهد الدولة العثمانية فقد أخضعتها الاسطوغرافيا الفرنسية التي ينتمي جلّ مؤلفيها الى الجمعيات الدينية لمتطلبات النسق الاستعماري والنسق الديني، حيث ألّف الرهبان كتبا تتماشى ونظرتهم الاستعمارية الدينية مثل؛ كتاب "مشاهير الاسرى" و "تاريخ بلاد البربر وقراصنتها" للاب بيار دانPierre Dan 1580-1649م وغيره، فكانت غايتهم من وراء ذلك التأليف؛ لا البحث العلمي في المجال التاريخي طبعا بل ترغيب أتباعهم في العطف على الاسرى لجمع موارد مالية للافتداء، بحكم ان الأب بيار دان شغل منصب الرئيس الأعلى لدير الماثوريين نسبة للقديس سان ماثورين Saint- Mathurin بين 1636 و1949م، والذي كان يبغي من ورائه افتداء الاسرى من المغرب والجزائر وتونس، ففي نظره المبالغة في القسوة والرعب في المؤلفات التاريخية تلّين قلوب الأتباع وتسمح لهم بجمع التبرعات للأسرى. كما كانت ترمي مؤلفاتهم الاسطوغرافية أيضا الى تغذية الحقد ضد المسلمين لتعزيز شرعيه استعمارهم، فاعترتها التفاسير المغرضة والبتر من النصوص الاصلية وتقديم المعلومات الخاطئة.[44]

من جانب آخر لم تسلم اسطوغرافيا الرحالة الاوروبيين من أدلجة التاريخ في العهد العثماني، حيث عرض السياسي والصحفي حسونة الدغيس الطرابلسي(1778-1836م) في تقريره الذي رفعه الى رجال الدعوة في إسطنبول عام 1834م، عن الرحالة الأوروبيين ما يلي: "**وهكذا زنادقة الافرنج السياحيون في الديار الإسلامية عند عودتهم الى أراضيهم يؤلفون رحلات في اسفارهم، وحيث لم يكن لهم معارض في الردّ على اختلاف، يضعون من الكذب والبهتان ما الله به عليم، ترغيبا للمشتري على قدر ما فيه من العجائب والغرائب، ويظهرون مزاياهم على قدر من اجتمعوا به... فيُقوّلون ارباب المناصب ما لا يقولون، ويُفعّلونهم ما لا يفعلون، ويزدرون بهم ويفتخرون بأن الوالي فلان او الوزير الفلاني يشكرهم...وقد اشاعوا ان لا يمكن التقرب لأرباب المناصب الا بالهدايا وقد ادرجوا الرشوة، وبالجملة والتفصيل، كلّ ما فيهم من المصائب والرذائل**

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

اوجدوه لنا معشر الإسلام." [45] يمكننا القول إن النص ردّ على النمطيّة التي يتبناها الرحالة الأوروبيون في تأليفهم عن الدول التي زاروها، وهي صورة متداولة عند جلّ الرحالة، وكأنها مستنسخة، إذ نحسّ عند قراءتها ان السواد الأعظم من التأليفات الاسطوغرافية متشابهة ومتفقة حول جلّ النقاط حتى وان تباينت المواضيع فهي نابعة من منطق اسشتراقي واحد. نلاحظ ان النص يُستهلّ بنعت الرحالة بمصطلح "**الزاندقة**" وهو مصطلح ديني معناه فساد القلب، على أساس انه لا يمكن اصلاح من فسد قلبه من الزنادقة الذين يشوّهون الحقائق تنفيذا لايديولوجياتهم، ثمّ يلحق النص بجملة من الصفات السلبية التي تتجمّع في حقل أخلاقي، ألصقت بذوي السلطة في الديار الإسلامية مثل؛ **الرشوة** وكلّ أنواع **الرذائل**. ويتطرّق إلى نقطة مهمّة تتعلق بنظرة الغرب للشرق " ...**ترغيبا للمشتري على قدر ما فيه من العجائب والغرائب**..."، على أساس نظرة الغرب للشرق الرومنسي العجيب والغريب، وما هي الا استراتيجية استشراقية غربية مبالغ فيها بغية تغييب الحقائق وترغيب المشتري. وفي هذه الحالة لا يمكننا أن نسلّم بما جاء في النصّ على أساس ان كل صاحب سلطة كان نزيها وشريفا، ولكنّنا في الوقت نفسه لا يمكن ان نعمّم الفساد على الجميع، فهناك نسبية في الموضوع حسب الاحداث والفترات.

لقد شوّهت الاسطوغرافيا الفرنسية تاريخ الجزائر في تلك الفترة، كما وصفت الدولة العثمانية بأبشع الاوصاف وجعلت عهدها عهد سيطرة واستعمار واستغلال. فبثّت فكرة ان الجزائر كانت ايالة مستعمرة، وقد نتج عنها جدل كبير لازال الى يومنا، هل الفترة العثمانية كانت غزوا ام فتحا؟ خلافة ام سطوا عليها؟ هي جدلية أبدية تظهر وتختفي بحسب الأوضاع والتيارات الموالية او المعارضة لها، والحقيقة أن مصطلح "غزو" ومصطلح "فتح" يتماشيان معا، وقد استخدما في الأدبيات التاريخية العثمانية دون تفرقة، [46] فالغازي بمثابة المجاهد والفاتح، فاذا كانت الدولة العثمانية غازية فهذا شرف لها بالمفهوم العثماني. وبخصوص توظيف مصطلح "الغزو" بمعنى الاستعمار فقد ظهر عند المؤرخين القوميين المصريين عندما وصفوا الدولة العثمانية بالاحتلال، بينما إطلاق مصطلح "الفتح" العثماني فهو مستبعد لأن الدول المسلمة لا تفتح بل هو أمر يخصّ الدول الغربية المشركة. اما اعتبار الدولة العثمانية "خلافة" فقد نوقش هذا الموضوع فقهيا في القرن السادس عشر 16م في عهد السلطان سليمان القانوني في رسالة فقهية كتبت من قبل الصدر العظم لطفي باشا بعنوان "خلاص الآمة في معرفة الأئمة" حيث نفى فيها شرطية القرشية المطلقة للخليفة واثبت فيها احقية السلطان العثماني بالخلافة. [47] في حين نرى ان توظيف مصطلح "الوجود" العثماني فهو في غير محلّه لان الوجود يدوم فترة قصيرة بينما الدولة العثمانية ظلت رايتها ترفرف لستة قرون ما يجعلها فترة طويلة، ويبقى هذا الجدل قائما مادام هناك مواليين للدولة ومناوئين لها.

نستشفّ مما ذكرناه سابقا ان معظم الاسطوغرافيا الفرنسية قد سعت الى تثبيت النسق الاستعماري في الجزائر، فركّزت على السلبيات أكثر من الإيجابيات، وقد عبّر ولخّص هذا الوضع

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

المؤرخ مولود قاسم نايت بلقاسم قائلا: "**اغلب المؤرخين الفرنسيين لم يكونوا يبالغون في سرد مناقبنا بل في مثالبنا، ولم يكونوا يغلون نحونا في المدح بل في القدح، وانهم كانوا ينتقصون جلائل اعمال سلفنا ويتجاهلون امجادنا بل وينكرون حتى وجودنا محاولين بذلك تعقيدنا حتى نبقى راضين بالدون قابلين بالبون... فهم لا يتحدثون عن تلك السبعين معاهدة التي عقدت بين الجزائر وفرنسا قبل 5 يوليو 1962...او عن صدى تلك الانجادات العسكرية البحرية التي انقذت بها الجزائر فرنسا...او تلك الإسعافات المالية والاقتصادية والاستراتيجية، بل وحتى بالمواد الغذائية التي استخلصت بها الجزائر فرنسا من براثن المجاعة، والبؤس في عهد الثورة الفرنسية ثم نابليون بونابارت...لقد كان ملوك فرنسا من لويس الرابع عشر حتى شارل العاشر مرورا بنابليون بونابارت نفسه يُعنونون رسائلهم الى دايات الجزائر هكذا: الى السادة الامجاد العظام....ثم ان على فرنسا ديونا لم تسددها حتى اليوم وليس القمح فقط بل دين عيني أيضا بالمال نقدا وبالذهب.**" [48] وفي السياق نفسه ذكرت الباحثة عائشة غطاس على لسان المؤرخ الفرنسي جاك فيليب لوجي دوتاسي Jacques Philippe Laugier de Tassy 1600-1799م الذي شهد على تعصب تلك الاسطوغرافيا حول ثيمة الجزائر في العهد العثماني قائلا: "**ستغمرني سعادة كبرى اذا استطاع كتابي ان يقدم نفعا للدول الأوروبية المتعاملة مع الجزائر واذا نجح في القضاء على الادعاء غير العادل الناتج عن تعصب مبالغ فيه ضد كل ما هو تركي.**" [49] لقد سعت الاسطوغرافيا الفرنسية جاهدة الى تقديم صورة مشوهة عن الجزائر لا تمت بصلة الى التاريخ الحقيقي، فكان تاريخ الغالب لا المغلوب المستوحى من معاداة النسق الغربي للنسق الشرقي والمبني على نظريات التفوق العرقي التي تخدم الاستيطان الفرنسي. وقد قال عنها المؤرخ الفرنسي جيلبير ما ينيي Gilbert Meynier(1942-2017م): "**اسطورة الفرنسي المتفوق عرقيا**"، [50] حيث لازلنا نشهد النرجسية الفرنسية الى يومنا هذا، فقد تمّ مؤخرا الاستعانة بتاريخ الجزائر كنوع من الرواسب الثقافية في العقلية الفرنسية لاجتذاب الناخبين السياسيين، إذ قام باتريك بويسون Patrick Buisson (1949م) صحفي ومستشار سياسي ، ومدير سابق للمجلة الأسبوعية اليمينية المتطرفة، بنشر البوم فاخر بعنوان "حرب الجزائر" في أواخر عام 2009م، شاركت فيه بعض مؤسسات الدولة الفرنسية بغية تمجيد الجيش الفرنسي، على أساس انهم كانوا محاربين رجوليين، كما اختزن الالبوم مجموعة من الادانات والحيل المحتشدة ضد الجبهة الوطنية بهدف الفوز في الانتخابات فقط. [51] وقد تمّ عرض الالبوم بالموازاة مع عرض فيلم وثائقي بعنوان "الآلهة تموت في الجزائر - حرب المقاتلين " في باريس. [52] هو اذن نوع آخر من التشويه التاريخي الاستشراقي المعاصر ذو البعد الضيق والحامل للاقنعة والتي مهما اختلفت تلتقي في نقطة مشتركة واحدة وهي خدمة النسق الاستعماري والديني بأي طريقة كانت. وحسبنا انها مع تقدّم الزمن واكتشاف الوثائق خاصة العثمانية منها يمكن للتاريخ ان يعدّل بحسب الرواية الحقيقية للمغلوب لا الغالب. يمكننا القول ايضا ان جلّ الاسطوغرافيا الفرنسية

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

بمنهجها الذي انتهجته قد أُخضعت من قبل النسق الاستعماري والنسق الديني الى متطلباتهما، فأنتجت مؤلفات تاريخية عن الجزائر فاقدة للقيمة العلمية والموضوعية وحاملة للايديولوجيا السلبية المغرضة في بعدها الضيق. حيث اهتمت تاليفاتهم الاسطوغرافية بقضية مهمّة جدا وهي تشويه الدولة العثمانية والحط من قيمتها والطّعن فيها بكلّ الأشكال والوسائل، واعتبارها استعمارا اجنبيا للجزائر وان فرنسا هي الخلاص، وما هو في الحقيقة سوى تبرير من اجل ممارسة الاستدمار، ذلك الاستدمار الذي سعى الى هدم كل أثر للدولة العثمانية لها سواء كان ماديا او معنويا، من مساجد وزوايا،وسرق ارشيفها، وغُيّب على أثر ذلك جلّ تاريخ الجزائر في تلك الفترة الى يومنا هذا إلا النذر.

التهميش:

1- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، مقدمة الطبعة الأولى

2-حفناوي علي، صورة الجزائر في عيون الرحالة وكتابات الغربيين، دار الباروزي العلمية للنشر والتوزيع، ص52

3- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830م، دار هومة، 2012، ص4

4-احمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر، 1931م، ص35

5-عبد الحميد بن ابي زيان بن اشنهو، مرجع سابق، ص29

6-احمد توفيق المدني، الداي محمد عثمان، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م، ص09

7- مولاي بالحميسي، موقف المؤرخين الفرنسيين من الجزائر في العهد العثماني، مجلة الدراسات التاريخية، أعمال الملتقى الوطني حول المدرسة الغربية وقضايا التاريخ الجزائري المنعقد أيام 10-11-12 مارس 1987م، مرجع سابق، ص105

8-المرجع نفسه، ص102

9-يحي بوعزيز، حروب المقاومة بالجزائر كما صورتها الكتابات الفرنسية، أعمال الملتقى الوطني حول المدرسة الغربية وقضايا التاريخ الجزائري المنعقد أيام 10-11-12 مارس 1987م، مرجع سابق، ص152

10-ابوا القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، مرجع سابق، ص30

11-عبد الرحمن دويب، مرجع سابق، ص119-120

12-حفناوي علي، مرجع سابق، ص54

13-حنيفي هلايلي، مرجع سابق، ص104

14-مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية، قبل سنة 1830، ج1، دار الامة، الجزائر، 2007م، ص21-32

15-إبراهيم علوش، المؤامرة في التاريخ، حقيقة ان خيال، مجلة طلقة تنوير، العدد رقم، 42، 2017، ص2

16-بلعالية الميلود، من اجل إعادة الاعتبار لتاريخ الدولة العثمانية في الجزائر قبل 1830، مجلة Route educational and social sicence journal, المجلد 5 رقم 8 جوان 2018، ص799

17-ابوا القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، مرجع سابق، ص30

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

18-المختار الهراس، التحليل الانقسامي للبنيات الاجتماعية في المغرب العربي، حصيلة نقدية، حجازي وآخرون، نحو علم اجتماع عربي، علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1993م، 266
19-زايدي نعيم، المجتمع والدولة في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2003م، ص29-30
20-الطيب بوعزة، علم الاجتماع الاستعماري واستعمال ابن خلدون، 2017، مقال استخرج من الرابط https://www.alaraby.co.uk/culture بتاريخ 2018/11/05م، على الساعة 10.25
21- محمد جحاح، الاطروحة الانقسامية بين الإرث الخلدوني وسوسيولوجيا الوضعية، مقال استخرج من البراط http://www.aranthropos.com/الأطروحة-الانقسامية-الإرث-الخلدوني، بتاريخ 2018/11/07م، على الساعة 08.45
محمد جحاح، المرجع السابق.
22- زايدي نعيم، مرجع سابق، ص45-47-61
23-يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط1، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، 1980م، ص5
24-مولود قاسم نايت بلقاسم، مرجع سابق، ص49-50
25-مولود قاسم نايت بلقاسم، المرجع السابق، ص49-50
26-المرجع نفسه، ص49-50
27-عبد الحميد بن ابي زيان بن اشنهو، مرجع سابق، ص29
28-ماريا، دوافع بحث الفرنسي في تاريخ الجزائر، 2012م، مقال استخرج من الرابط -http://mokhtari.over-blog.org/article بتاريخ 2018/10/18 على الساعة 19.41
29-عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م، ص63
30-رسومات في كهوف الطاسيلي تجسد حقيقة عيشهم او مرورهم من هذا المكان، مقال استخرج من الرابط http://djamilapresse.com بتاريخ 2018/10/19م، على الساعة 11.40
31-عبد الرحمان الجيلالي، مرجع سابق، ص71
32-عبد الرحمان الجيلالي، مرجع سابق، ص42
33-للمزيد من المعلومات ينظر عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، الجزء 1 و2
34-الزواوي بغورة، البحث عن الذات: قراءة في مسالة الهوية التاريخية عند المؤرخ الجزائري الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني، من كتاب المؤرخ 35-ناصر الدين سعيدوني رائد الدراسات العثمانية في الجزائر، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2014م، ص135
36-عبد الرحمان الجيلالي، مرجع سابق، ص32
37-احمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، 1492-1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص6
38- صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، مكتبة الانجلو المصرية، ط6، 1993م، ص 28
39-مولود قاسم نايت بلقاسم، مرجع سابق، ص49-50
40- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة، 2012، ص4
41-عبد الحميد بن ابي زيان بن اشنهو، مرجع سابق، ص9
42-عبد المنعم الجميعي، الدولة العثمانية والمغرب العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، 2006م، ص13
43- احمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة، مرجع سابق، ص194

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

44-حفناوي علي، مرجع سابق، ص51
45-عبد الجليل التميمي، الغرب كما يراه حسونة الدغيس الطرابلسي سنة 1834، المجلة التاريخية المغربية، ع.5، تونس، 1976، ص.54.
46-كريم عبد المجيد، لماذا لا يعتبر الحكم العثماني لمصر احتلالا، مقال استخرج من الرابط -http://ida2at 2033742816.eu-central-1.elb.amazonaws.com/why-isnt-the-ottoman-occupy-egyp بتاريخ 2018/12/09 على الساعة 19.07
47-المرجع نفسه.
48-مولود قاسم نايت بلقاسم، مرجع سابق، ص20
49-عائشة غطاس، نظرة حول تقييم بعض المصادر الغربية لسياسة الجزائر الخارجية خلال العهد العثماني، مجلة الدراسات التاريخية، ال عدد5، 1988، ص118-119
50-Gilbert Meynier, opc, p22
51-Idem, p19
52-التاريخ حسب باتريك بويسون L'histoire selon Patrick Buisson، مقال استخرج من الرابط http://www.bernard-deschamps.net ، بتاريخ 2018/10/30م، على الساعة 11.17.